# أي إسهام للحركة الإصلاحية في نهضة الشعر الجزائري؟

**أ.د. عبد القادر هني**
جامعة الجزائر2

إن من يعود إلى ما كتب عن الأدب الجزائري الحديث من مقالات وأنجز من دراسات لا يعدم في طائفة منها إشارات وإيماءات إلى أن الحركة الإصلاحية كانت عبئا ثقيلا على قرائح المبدعين الجزائريين بسبب ارتباطها في مشروعها النهضوي بالمنهج السلفي الذي ترسمته الحركة الإصلاحية في المشرق العربي في مشروعها الإحيائي، فكان ذلك قيدا كبل المواهب وحال بينها وبين الانعتاق من سلطان التقليد والاهتداء بهدي الأولين بدل الإفادة المثمرة من الحركات التجديدية التي كان يعج بها عالم الأدب في الشرق والغرب وقتئذ. بل إن سلفية هذه الحركة أدت في تقدير بعض من أصحاب هذه المقالات والدراسات إلى قص أجنحة الذين حاولوا أن يحلقوا بعيدا عن أجوائها، فذهبت أصواتهم المنادية بالتجديد والتحرر من قبضة التيار المحافظ أدراج الرياح.فلم تترك آثارا واضحة المعالم في الحركة الأدبية الحديثة بالجزائر،فظل طابع المحافظة و التقليد هو الغالب عليها، وبقيت الأصوات المجلجلة هي أصوات الأدباء والشعراء السالكين السبيل التي سلكتها المدرسة المحافظة في حين ظلت الأصوات المناوئة لها مبحوحة لا تكاد تسمع أو تلفت الأنظار.

لست أحب أن أستعجل الأمور أو أن استبق الأحداث فأحكم حكما قبليا على مثل هذه الآراء فأنسبها إلى الارتجال وألصق بها تهمة التحامل على الحركة الإصلاحية ونكران ما قد يكون لها من إسهام في إقامة صرح

الشعر الجزائري الحديث، وإنما سأحاول أن أبدأ بالبحث عن اسهامات هذه الحركة في انتشال الشعر الجزائري من الوهدة التي تردى فيها وتوجيهه الوجهة الرشيدة،فإذا ما بلغنا هذه الغاية تجلى لنا نصيب وجهات النظر المشار إليها من الاعتدال أو المبالغة في تقييم جهود الإصلاحيين وأثرها في النهوض بالشعر الجزائري. وفي هذا المضمار نبدأ بطرح سؤال مؤداه: ما هي الحال التي كان عليها الشعر الجزائري قبل ميلاد الحركة الإصلاحية رسميا سنة 1925 ؟

إذا رجعنا إلى تراث الجزائر الشعري في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مثلا فإن الظاهرة التي لا تحتاج إلى بذل كبير جهد لإدراكها هي الضعف الشديد الذي غلب على الحركة الشعرية في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر الأدبي، فالقسم الأكبر من النماذج الشعرية التي كانت تتردد في الأوساط الأدبية في هذه الآونة هي صورة مكررة لنماذج الشعر العربي في عصر الضعف من حيث الوهن الذي كان يسمها سواء في شكلها أم في مضمونها،فلا نكاد نلمس فيها من عناصر الشعر سوى الوزن،بل حتى هذا العنصر كثيرا ما نجده مكسورا ممجوجا. يقولالدكتور محمد ناصر عن شعر هذه الفترة في الجزائر:» أغلبه لا يرقى إلى أن يكون شعرا بالمفهوم الصحيح لكلمة شعر، فإذا فتشته وجدته كلمات مرصوفة مشتقة من مجالات غير أدبية، فأصحابه لا يفرقون بين لغة الشعر التي هي لغة عواطف ومشاعروبين لغة النحو والفقه والتوحيد، ويزنون قصائدهم ببعض المنظومات التي يقرؤونها في المواسم ومجامع الأذكار، فيقولون هذه القصيدة من بحر البردة وتلك من بحر الهمزية «. [1]

وقد كانت هذه الحالة التي بلغها الشعر في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين سببا للتذمر الذي نلمسه لدى بعض النقاد الذين استاؤوا استياء عميقا مما أصاب الحركة الشعرية من

تدهور شديد في هذه الأثناء جعل الهوة بينها وبين الشعر الحق سحيقة، فالشيخ البشير الإبراهيمي قد اطلع على حد قوله على أكثر أشعار هذه الحقبة، «فإذا هي أخت الأشعارالملحونة الرائجة في السوق،لأنها منقطعة الصلة بالشعرفي أعاريضه وأضربه، ومنقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها ومعانيها ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه واختراعه». [2]

ونظرا إلى هذه الصورة من التدني التي آلت إليها الحركة الشعرية في هذه الفترة المظلمة من الحياة الأدبية في الجزائر، فقد الشعر كما يقول محمد بن عبد الرحمن الديسي – أحد شهود هذه الفترة – « محبيه والمهتمين به، فصارت حرفة الأدب بئس الاحتراف». [3]

وإنه ليمتد بنا الكلام لو أردنا أن نستعرض كل النصوص التي تحمل إشارات إلى الوضع المزري الذي بلغه الشعر الجزائري في أواخر القرن التاسع عشروأوائل القرن العشرين، وهو وضع له أسبابه الموضوعية التي لا يدخل بحثها في المجال الذي حددناه لأنفسنا في هذه السطور.

وكيما نتحاشى الحماس والتعصب الأعمى للحركة الإصلاحية في إظهار ما قد يكون لها من أثر في بعث الحيوية والرواء في هذا الوجه الكالح الذي خبا فيه ألق الحياة، فإنه يجب علينا أن نعترف ابتداء أن بدايات عودة الشعر الجزائري إلى الحياة تقدمت نهاية الربع الأول من القرن العشرين تاريخ نشأة الحركة الإصلاحية، فما جادت به قرائح أمثال عمر بن قدور وعبد القادر المجاوي والمولود بن موهوب وغيرهم تبين أن الملامح الأولى للتغيير الذي بدأ يعرفه الشعر الجزائري قد سبقت الحرب العالمية الأولى نفسها. فقد بدأت تطرق الآذان – قبيل هذه الحرب – أنغام جديدة لم يألفها الناس في شعر العهد السابق، إذ أخذ أمثال الشعراء الذين ذكرناهم يخوضون في موضوعات وثيقة الصلة بواقع الجزائريين في هذه المرحلة، كالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي ومحاربة ماكان يثقل المجتمع من جهل وبدع وخرافات قعدت به عن مواكبة الحضارة الحديثة والأخذ بأسباب

المدنية، إلى جانب الدعوة إلى التعلق باللغة العربية والدين الإسلامي بحسبهما مقومين رئيسين من مقومات الشخصية الجزائرية، قال الدكتور محمد ناصر يتحدث عن المظاهر الجديدة في شعر عمر بن قدور خاصة: « غير أن الموضوع الذي نحسبه كان أكثر استحواذا على اهتمامات الشعراء هو محاربة الخرافات والبدع التي تفشت في أعقاب ما تنشره بعض الطرق المنحرفة من تصرف عقيم. ويبرز في هذا المجال عمر بن قدور بروزا واضحا، إذ نلمس في قصائده عناية خاصة بالناحية العقائدية واهتماما لافتا للنظر بالقومية الإسلامية حسب تعبيره، إلى جانب ما نلحظه في شعره من تحسن في الشكل تجلى في سلامة اللغة واستقامة الوزن وصدق العاطفة». [4]

وإذا كانت هذه المظاهر التي ألمح إليها الدكتور ناصر حقيقة واقعة لا يمكن لمن ينقب عن ملامح التطور في الشعر الجزائري الحديث أن يجحدها أو يتنكر للجهود التي بذلها في هذه السبيل عمر بن قدور وطائفة من الشعراء المعاصرين له، فإن ما ينبغي أن نذكر به في هذا المقام هو أن هذه الجهود كانت في حقيقة الأمر جهودا فردية لا تندرج ضمن نظرة شاملة أو تصور عام لتجديد الواقع الجزائري بناء على أسس واضحة وانطلاقا من فلسفة للتغيير محددة المنهج، لذلك فإن أثرها في بعث الشعر الجزائري ليتجاوب مع الحياة المعاصرة كان محدودا، إذ لم تتسع لتصبح حركة واسعة الرقعة تتبناها جماعة من المبدعين لها أهداف مرسومة تسعى إلى تحقيقها وفق منهج معين تسنده فلسفة واضحة في رؤيتها ومبادئها.

إن هذا الذي ألمعنا إليه هو ما افتقرت إليه المحاولات الفردية الأولى لتخليص الشعر الجزائري من جموده ومن تحجره ومما ران عليه من ترهل أفقده قيمته فاستحال قوالب خاوية خالية من دفء الروح ومن الدفق العاطفي الصادق ومن المعاني الحية القمينة بتثوير وعي جمهوره ليتجاوب مع الحياة ويقوم على أمشاط أرجله ليأخذ بزمامها ويغير ما لحقه الضعف

والوهن فيها. قلت إنهذا الذي عز توفره في بدايات نمو الشعور بضرورة التجديد والخروج من رتابة الجمود العام الذي خيم على المجتمع الجزائري هو ما سيتحقق في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى التي أيقظت أحداثها الجزائريين من سباتهم الطويل ليفتحوا أعينهم على عالم جديد غير العالم المتخلف العتيق الذي حواهم في جوفه وغيبهم في مغاراته المظلمة، فكان لزاما عليهم أن ينسجوا لأنفسهم ثوبا غير ثوبهم الرث الذي أناخ عليه البلى وأن يصكوا عملة غير عملة الانحطاط التي لم تعد متداولة في محيط قد خطا أهله في المدنية خطوات عملاقة وخلفوهم وراءهم بمراحل ليست بالقصيرة. يقول عمر بن قدوريتحدث عما كان للحرب الأولى من أثر على الجزائريين: «قد قضت على الدور القديم وأنشأت دورا جديدا أناسه غير الناس وأخلاقه غير الأخلاق» .[5]

فقد نهت هذه الأحداث الجزائريين إلى حتمية اللحاق بركب المدنية بتجديد المجتمع الذي يتطلب بدوره تجديد وعي الجماهير بتخليصه من معوقات التحضرالتي تراكمت في النفوس وغاصت جذورها إلى العمق، فكرست بين الناس حياة قوامها الخرافة والشعوذة، من ثم كانت الخطوة المنهجية الأولى لتحقيق هذه الثورة في الوعي الاجتماعي هي نشر التعليم الحقيقي على نطاق واسع في المجتمع الجزائري الذي كان محروما منه حرمانا كبيرا،لأن الدوائر التي كانت تنهض به كانت قليلة من جهة ثم إنها كانت تقدم تعليما كان أغلبه دون أن يمكن المجتمع من النهوض من كبوته والخروج من غيبوبته، فقد صور الشاعر الجنيد أحمد المكي(ولد سنة 1893) أحد شهود هذا العهد أساليب التعليم ومواده في هذه الفترة فقال: «فالولد يقضي جل حياته إن لم أقل العمر كله في الدروس القرآنية منكبا على لوحة مملوءة حروفا سوداء يكرر صباح مساء كالفنوغراف دون فهم يغذي العقل، ولا نبرح الدروس إلا وقد اعوج مستقيم عودنا».[6] ويزيد الدكتور محمد ناصر هذه المسألة وضوحا فيقول: «وكانت مراكز التعليم

مرتبطة بالوسط الديني ارتباطا قويا، فهي الزوايا والمساجد والكتاتيب القرآنية، وحتى المدارس القليلة فقد كان الذين يدرسون بها في الأغلب الأعم من رجال أئمة وفقهاء ووعاظ ومرشدين. أما المواد التي تدرس بهذه المراكز التعليمية فقد كانت تعتمد أساسا على حفظ القرآن الكريم، وإن هي تدرجت قليلا في نهجها وأسلوبها لم تتجاوز هذه المواد التي تساعد على فهم القرآن الكريم والشريعة الإسلامية، وكانت الطريقة التي تلقن بها هذه العلوم تعتمد غالبًا على الحفظ والاستيعاب الكمي لا الكيفي».[7]

إزاء هذا الوضع التعليمي المتردي الذي أعاق حركة التطور جملة في جميع ميادين الحياة في المجتمع الجزائري الذي كان التخلف يومئذ يطوقه تطويقا شديدًا بسبب السياسة التي انتهجتها فرنسا لإحكام قبضتها على البلاد وضمان استمرار هيمنتها عليه، إزاء ذلك أحست فئة من الشباب الجزائري بواجبها تجاه وطنها الذي أورده الاستعمار مهلكه، فكان ذلك الشعور حافزًا للتفكير في الأداة الكفيلة بإنقاذ المجتمع من الوضع الذي آل إليه، فاتجهت الأنظار إلى العلم وسيلة لتحقيق الغاية العظيمة التي سيكون معها ميلاد الجزائر الحديثة، فوردت هذه الفئة منابع الثقافة العربية الإسلامية خاصة في تونس والقاهرة والمغرب التي تخرج في معاهدها العالية عددٌ جمٌّ من الجزائريين سيشرفون فيما بعد على المشروع النهضوي في البلاد بما حصَّلوه من ثقافة أهلتهم لتلك المهمة، وبما خبروه من أساليب وتجارب الحركات الوطنية الإصلاحية في البلاد التي تخرجوا فيها، من ثم فإن منشأ الحركة الإصلاحية في الجزائر سيكون على أيدي هؤلاء المثقفين الذين كانوا يمثلون الغد المشرق للجزائر كما عبر عن ذلك الزاهري في أبياته التالية التي حيَّ فيها دفعة من خريجي الزيتونة عام 1925.[8]

شباب لِعِمْرُ الحقِ لم يكفهم سوى حازم عف الطوية طاهر
تجلوا على هذي الجزائر بعدما سجا الجهل أشباه البدور الزواهر

فقرَّبهم شعب الجزائر مثلما ... تقرُّ لدى الإياب عين المسافر
هم النشءِ لا نشءٌ أضاع شبابه ... وأمواله بين الخنا والمخامر
لهنا بهم شعب الجزائر إنهم ... هداة ذوو خبر بوعر المعابر
فلا زال أبناء الجزائر طالعا ... عليها فتى منهم جميل المظاهر
ولازال هذا الشعب في الناس دائما ... على الدهر والأيام أظهر ظاهر

ولما كان من بين أهداف الإصلاحيين الأولى مقاومة الثقافة الاستعمارية الرامية إلى مسخ الشخصية الوطنية وطمس مقوماتها الرئيسة، فإنه كان من الطبيعي أن يؤسسوا مشروعهم الإصلاحي على تعزيز الثقافة العربية الإسلامية بالعودة إلى منابعها النميرة أسوة بأساتذتهم من رجال الإصلاح، لاسيما أولئك الذين كان تأثيرهم فيهم عميقا كالشيخ محمد عبده، قال السعيد الزاهري بهذا الشأن: «... وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية والاجتماعية إلا وهو مصري غالبًا، وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القوي في المغرب العربي، فللأستاذ المرحوم محمد عبده المصري أنصار ومريدون، وفكرة الإصلاح الإسلامي التي يدعو إليها أصبحت اليوم مذهبا اجتماعيًا في الجزائر تعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس».[9]

إن الإصلاحيين الجزائريين- كما يتجلى من كلام السعيد الزاهري- ساروا على خطا أساتذتهم في مشروعهم النهضوي، فارتبطوا ارتباطا شديدا بالماضي الإسلامي في عهود ازدهاره. وفي المضمار الأدبي – وهو ما يعنينا هنا- فسح المجال واسعا للتراث العربي الإسلامي شعره ونثره، بالإضافة إلى القرآن الكريم وما اتصل به من علوم، فكان إلحاح رجال الإصلاح كبيرًا على ضرورة الاهتمام بكتاب الله عزوجل حفظا وتذوقا ودراسة وتفسيرًا في برامجهم التربوية والتعليمية التي كانت تهدف إلى إعداد رجال الغد ومقاومة تيار الثقافة التغريبية الدخيلة كما يقول الدكتور محمد ناصر. وإيثارًا للإيجاز نقتصر في هذا المقام على نص لابن باديس يكشف فيه عن العناية الكبيرة التي كان يوليها الإصلاحيون القرآن الكريم

بحسبه رافدًا أساسيا لا يمكن أن يستغنى عنه في تحقيق النهضة الأدبية التي كانت من بين مقاصد حركتهم، قال ابن باديس: «إننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم وغايتنا التي ستتحقق أن يُكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها».[10]

فإذا كان كلام زعيم الحركة الإصلاحية يوحي بأن الغاية من تربية النشء على القرآن هي تقوية الجانب العقيدي في نفوسهم حتى يشبوا على الإيمان الصحيح الذي لا تشوبه البدع والضلالات التي شوهت الإسلام في الجزائر تشويهًا شنيعًا، فإن ما لكتاب الله من أثر في تقويم ألسنة هذه الناشئة لم يكن ليخفى عليه وهو الذي كان للبيان القرآني أثره البالغ في أسلوبه الذي أثار إعجاب المشارقة أنفسهم فقال جورج حداد يعلق على إحدى خطبه:» إن كتاب المسلمين لا يجيدون مثل هذه التحارير الراقية إلا لأنهم يدرسون القرآن الشريف. إن المسيحيين الذين لم يتأملوا القرآن ولم يدرسوا أسلوبه، لا يستطيعون مهما حاولوا أن يبلغوا في العربية شأو الكتاب المسلمين».[11]

لقد أحس الشعراء أنفسهم بما لهذه التنشئة على القرآن من أثر طيب على إبداعاتهم تعبيرا وتصويرا، إذ أسهم إسهاما كبيرا في الارتقاء بأساليبهم عما كانت عليه أساليب الشعراء في الفترات السابقة، كما اتسمت لغتهم بقوة وجزالة كانت تفتقر إليهما أشعار أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين التي كانت لغتها « في أجود حالاتها إلى الفقه والعلوم الشرعية أقرب منها إلى لغة الأدب والشعر».[12]

عملت الحركة الإصلاحية، من جهة أخرى، على تحقيق النهضة الأدبية بالعودة إلى التراث الأدبي القديم الذي كانت ترى فيه هو الآخر عاملا رئيسا من عوامل الارتقاء باللغة العربية التي كانت يومئذ في وضع لا تحسد

عليه بسبب السياسة الاستعمارية الهادفة إلى القضاء على الحرف العربي في الجزائر، تمهيدا لمسخ الشخصية الوطنية بتعطيل مقوم رئيس من مقوماتها، لذلك كان حرص الإصلاحيين شديدا – كما ذكرنا – على وصل الناشئة بالتراث العربي القديم، لأنه لا يمكن في عرفهم « للغة العربية أن ترقى في ألسنة أبنائها مالم تستمد رقيها من روائع فحول الأدب العربي القديم، من أمثال عبد الحميد الكاتب وابن العميد والجاحظ والحريري والبحتري وأبي تمام والمتنبي» [13].

وقد كان البشير الإبراهيمي، كما لاحظ الدكتور محمد ناصر، أكثر الإصلاحيين إلحاحا على الطلاب المبتدئين والمتخرجين في المعاهد العالية ليهتموا بالتراث حفظا واستيعابا، لأنه لا سلاح للأديب – كما يرى- إلا كتاب الأغاني وأمثاله من أمهات الكتب التراثية، لذلك كان ينتقد بشدة الأدباء الذين لا يطالعون أمثال هذه المصنفات التي يتوقف عليها صقل أذهانهم وتغذية ملكاتهم البيانية وإثراء مادتهم اللغوية وتنمية ثرواتهم الفكرية.

وكان الإبراهيمي في توجيه الشعراء المبتدئين يحث دوما على محاكاة شعر فحول العربية وتحديهم كما يتجلى ذلك من تعليقاته على أشعار الشعراء، فقد قال ينتقد أحدهم:»....ولكنه كغالب قالة الشعر بهذه الديار ينقصه استعراض أساليب البلغاء وتحديها وتمرين القريحة على محاكاتها وتيقظه الذهني إلى أسرار فقه اللغة ومواضيع فصحها ومجانبة الرخص النحوية وتحكيم استعمالات الفصحاء في القواعد النظرية، وعسى أن تكون كلمتنا هذه حافزة لهم»[14].

وتوكيدا على أهمية التراث في تحقيق النهضة الأدبية، جعل الإصلاحيون من المدرسة الأحيائية بالمشرق موردا لشعراء الجزائر الناشئين، فكانوا يتخيرون لتلامذتهم نماذج من شعر شعراء هذه المدرسة ويطالبونهم بحفظها وتقليدها ومعارضتها، قال محمد الهادي السنوسي الزاهري يتحدث عن صلة الحركة الأدبية في الجزائر بالأحيائيين

المشارقة: «كان أساتذتنا لا يفتؤون يتخيرون لنا من منظومهم ومنثورهم ما يؤثروننا به لتثقيف عقولنا وإصلاح ألسنتنا وتبصيرنا بما تجود به المدرسة الحديثة في عالم العرب، وكان النتاج الفكري لهؤلاء يعمل في الطلبة هنا أكثر مما تعمل فيهم مدارسهم التي ينتمون إليها على اختلافها، فكونت بينهم انسجاما ونفخت فيهم روحا»[15]

ونظرا إلى هذه الصلة التي وثقها رجال الإصلاح بين الحركة الأدبية الناهضة في الجزائر وبين المدرسة الأحيائية، أضحت أشعار أمثال حافظ إبراهيم وشوقي ومعروف الرصافي وغيرهم من الشعراء القمم الأحيائيين النماذج الفذة التي يترسم شعراء الجزائر خطاها، وينسجون على منوالها.

ولعل في الآلام العميقة التي كانت تعتصر نفوس الإصلاحيين وتلامذتهم من الشعراء والأدباء، خاصة حين يتوفى الموت شاعرا أو أديبا من هؤلاء النهضويين المشارقة، ما يزيدنا يقينا من الطريق الذي سارت عليه الحركة الإصلاحية في نهضتها الأدبية، ويكشف لنا عن الطوابع التي ستغلب على الشعر الجزائري في هذه المرحلة من تاريخه، فابن باديس الذي كان على وعي عميق بالخدمة العظيمة التي يمكن أن يقدمها الأدب الأحيائي للعربية المهيضة الجناح في الجزائر، حين تناهي إليه خبر وفاة شوقي كتب يقول:» مات شاعر الإسلام الذيكان يعتز بمفاخره ويشدو بمآثره وينطق بلسانه،.... مات شاعر العربية الذي تشرب روحها وتملكت هي روحه فحمى أسلوبها ونغمها وحمل لواءها خفاقا في الآفاق»[16].

وقد كان لقيام الإصلاح الأدبي على القرآن الكريم والتراث العربي القديم شعره ونثره، بالإضافة إلى ما كان ينتجه التيار المحافظ بالمشرق، على النحو الذي حاولنا توضيحه في السطور السابقة، آثاره الطيبة في الارتقاء بالشعر الجزائري الحديث عما كان قد آل إليه من ركاكة وضعف في شكله ومضمونه على سواء، فظهر مع الحركة الإصلاحية شعراء غيروا تغييرًا واضحًا وجه الشعر الجزائري الذي جفت فيه الحياة أو كادت في

الفترة السابقة للحركة الإصلاحية. فبفضل جهود الإصلاحيين الذين رعوا المواهب الأدبية الناشئة رعاية حانية بما كانوا يتخيرونه لأصحابها من نماذج شعرية راقية يصقلون بها ملكاتهم، وبما هيأوا لشباب الشعراء والأدباء من فرص لنشر أعمالهم ومتابعتها بالنقد والتوجيه لتسديد خطاهم، بفضل هذه الجهود التي لا يحق لنا أن نجحدها، عرف الأدب الجزائري شعراء لهم وزنهم من أمثال السعيد الزاهري وجلول البدوي وأحمد سحنون ومحمد الهادي السنوسي الزاهري ومحمد العيد آل خليفة ومفدي زكريا وحمزة بكوشة وغيرهم كثير. ومن يوازن بين أشعار هؤلاء والأشعار التي كانت تنظم في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فإنه سيلحظ بينها فروقا جوهرية واضحة، سواء في معانيها أم في أسلوبها ولغتها وصورها وأخيلتها. والنماذج التي تؤكد هذا التحول العميق الذي بدأ يعرفه الشعر الجزائري منذ نشأة الحركة الإصلاحية أكثر من أن تحصى ذكرناهم وفي أشعار غيرهم من الشعراء الذين استفادوا بنحو من الأنحاء من جهود الإصلاحيين. وشهادة باحث متخصص في الأدب الجزائري الحديث تغنينا عن سرد أمثلة هذا التطور الذي لا نرى أية مبالغة في إسناد فضله الأول إلى الحركة الإصلاحية. قال الدكتور محمد ناصر بعد تتبع واستقصاء دقيقين للشعر الجزائري الحديث: «فقد أصاب الشعر على يد الحركة الإصلاحية تطور ملموس تجلى في ظهور شعر جديد يختلف كثيرًا عن شعرها قبل الحرب العالمية الأولى، متعدد الأغراض يتماشى مع الواقع الاجتماعي والسياسي، كما تطور من ناحيته الفنية بعض التطور فابتعدت القصيدة عن المقدمات التقليدية المتكلفة وتخلصت اللغة الشعرية نسبيًا من لغة المنظومات العلمية والفقهية، واكتسب التعبير نوعًا من الانطلاق والحيوية، وتخلص كثيرًا مما كان

يثقله من آثار الصناعة اللفظية والبديع المتكلف، كما استطاعت بعض القصائد أن تعرف نوعا من الوحدة في الموضوع وإن ظلت السمة الغالبة عليها هي تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة».[17]

إذا كانت أشعار شعراء الحركة الإصلاحية قد عرفت التطور الذي رسم ملامحه الدكتور ناصر في كلامه المتقدم، فإن أشعار الجيل الذي شبَّ واستقام عوده في أحضان هذه الحركة ستعرف تطورًا أوسع في الثلاثينيات وما بعدها، فتبتعد ابتعادًا ملحوظا عما كان عليه الشعر الجزائري قبل بداية الإصلاح. ونظرة في ديوان شاعر كمفدي زكريا مثلا تكفي لتوكيد هذه الحقيقة التي لا أظن أن دارسًا نزيهًا سيماري فيها، نقول هذا الكلام على الرغم مما سيطبع شعر هذه الفترة –الثلاثينيات والأربعينيات- من مباشرة وخطابية ومن موضوعات ذات طابع اجتماعي تربوي توجيهي إلى غير ذلك من المظاهر التي أملاها على شعراء الإصلاح ومن تقيلهم كون أشعارهم موجهة بالدرجة الأولى إلى عامة الناس في مجتمع كان واقعا تحت هيمنة استعمار شرس جعل من أهدافه الأولى القضاء على الحرف العربي وطمس معالم الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، من دون أن نبعد بطبيعة الحال أثر المشارب التي نهل منها الإصلاحيون في وسم شعرهم بتلك المياسم؛ لكن مهما كانت سعة الرقعة التي انبسطت عليها تلك المظاهر التي كان حضورها وظيفيا غير منفصل عن الرسالة التي انتدب شعراء هذه الحقبة أنفسهم لأدائها، فإن ذلك لا يسوغ إنكار الأثر الإيجابي للحركة الإصلاحية في النهوض بالشعر الجزائري الحديث، لذلك حق لابن باديس أن يؤرخ للتحول الحقيقي في الأدب الحديث بالجزائر بظهور جريدة المنتقد سنة 1925، فقد قال: «... الحقيقة التي يعلمها كل واحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم برزت جريدة المنتقد،

فمن يوم ذلك عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل».[18]

وإذا كانت الحركة الإصلاحية قد استطاعت أن تخطو بالشعر الجزائري الخطوات التي ألمحنا إليها، فإنه لابد من الاعتراف أنها قد رفضت رفضا يكاد يكون تامًا الانفتاح على التيارات الأدبية التجديدية وأصمت أذنها للأصوات التي كانت تحاول أن تتقدم بالأدب الجزائري خطوة أخرى ليتجاوب مع ما كان يجدٌ حوله في هذا المجال، سواء عند العرب أم عند الغربيين. وفي هذا المضمار يمكننا أن نسجل انتصار الشعراء والأدباء الجزائريين لمدرسة الإحياء على التيارات الجديدة التي كانت تبحث لها عن موطئ قدم ثابت في الشرق. ففي الجدل الساخن الذي جرى بين الرافعي ممثلاً للإصلاحيين وبين طه حسين ومريديه الداعين إلى التجديد، فإن الإصلاحيين في الجزائر ظاهروا الرافعي على خصومه، مثلما عارضوا الديوانيين في موقفهم من شعراء مدرسة الإحياء الذين كانوا معجبين بهم أشد الإعجاب.

وبسبب من هذا الموقف الذي اتخذته الحركة الإصلاحية من التيارات الأدبية الجديدة الوافدة على العالم العربي والإسلامي من الغرب الاستعماري، فإن الجهود التي بذلها رمضان حمود في العشرينيات لتطعيم الشعر الجزائري بالتفتح على الآداب الأجنبية عن طريق الترجمة لم تجد صداها في الساحة الأدبية بالجزائر إلا في أواخر الأربعينيات مع ظهور جيل جديد من الشعراء.[19]

من هنا جاءت الانتقادات الكثيرة للحركة الإصلاحية. لكن إذا كان الموقف الصارم الذي اتخذه الإصلاحيون مما كانيعج به العالم حولهم من اتجاهات ومدارس أدبية جديدة لا يخلو من أثر في تأخر تفاعل الحركة الأدبية في الجزائر مع المحيط الأدبي الخارجي إلى فترة لاحقة، فإنه من الظلم الشديد للحركة الإصلاحية أن ننطلق في تقييم دورها في النهضة الأدبية

في الجزائر من واقعنا الراهن، ونتجاهل الظروف التي كانت تنجز في ظلها مشروعها النهضوي، فلا أحد له أدنى علقة بالتاريخ الجزائري الحديث يمكن أن يجهل ما بذله المستعمر الفرنسي، في تلك الأثناء، من جهود مركزة في إطار مشروع مدروس للقضاء على الشخصية الوطنية بالإجهاز على عنصريها الرئيسين وهما اللغة العربية والدين الإسلامي، ليتهيأ له قطع صلة الجزائر بالحضارة العربية الإسلامية التي يعود إليها انتماؤها. من ثم فإن التشبث بالتراث في مثل هذه الظروف ورفض التفاعل مع كل ما هو وافد من الغرب كان، في منهج الحركة الإصلاحية، ضربا من الدفاع عن الذات والمنافحة من أجل إثبات الوجود في وقت لما تصل فيه الحركة بمشروعها إلى غايته المرسومة، بل كانت في بدايته. معنى ذلك أنه لم يكن من المعقول منهجيا أن ترخص في تلك الأجواء بالتفاعل والتلاقح مع ثقافة كان من غايات منتجيها تهميش الثقافة العربية الإسلامية وتغييبها، لتشكيك الشعب الجزائري في نيته وأصالته، لذلك يحق لنا أن ننفي عن الإصلاحيين صفة التزمت التي ألصقت بهم، مادام الظرف هو الذي أملى عليهم سلوك ذلك المسلك الذي اختاروه نهجا عن وعي وإدراك لغاياته ونتائجه.

ومما يؤكد أن هذا الموقف كان ظرفيا أن زعيم الحركة الإصلاحية الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يُحرِّم إثراء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية، بل كان يرى أن الانفتاح على تلك الثقافات أمر ضروري، ففي مقال كتبه سنة 1926 تحت عنوان « تعليم اللغتين ضروري لنا» يقول: «إن الذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هو أوروبا. فضروري لكل أمة تريد أن تستثمر ثمار تلك العقول الناضجة وتكتنه دخائل الأحوال الجارية أن تكون عالمة حية من لغات أوربا. وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية، فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمم المتمدنة التي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل. ومما لا

يرتاب فيه – والواقع شاهد – أن مقدار كل أمة في اللحوق والتخلف بركب المدنية ،بنسبة كثرة وقلة انتشار لغة الغرب». [20]

لكن هذا الانفتاح لا يمكن أن تكون له الثمار التي يرجوها ابن باديس ومعه الإصلاحيون قبل التشبع بالتراث والتمكن منه. بعبارة أخرى، إن الانفتاح على الغير يجب أن يكون تاليا لاستكمال بناء الشخصية، ومن هنا نفهم لماذا كان رجال الإصلاح يعنون عناية بالغة بتنشئة تلاميذهم على القرآن الكريم وعلى الأدب العربي القديم. فقد كان هدفهم مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي، يقول ابن باديس في سياق رده على الشابي في كتابه الخيال الشعري عند العرب: « الشعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبية وأصل بلاغتنا ومرجع شعرائنا في اللغة والبلاغة والأساليب العربية، فدرسه والاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللسان المبين، فكيف نبني دعوتنا إلى توسيع الشعر العربي بالتزهيد فيه» [21]

إنابن باديس وصحبه كانوا على بينة من أن الإقبال على الثقافات الأجنبية دون سلاح قوي من الإيمان ومن الثقافة العربية الأصيلة لا يؤدي إلا إلى الذوبان في الفكر الوافد وإلى ضياع هدف رئيسٍ من الأهداف التي توخى الإصلاحيون تحقيقها من خلال برامجهم التعليمية والتربوية ، وهو تعميق أسس الشخصية العربية الإسلامية في النشء الذي سيكون منقذ الأمة وقائد ثوراتها ضد الاستعمار،وباني مجدها وحضارتها. معنى هذا أن دعوة الإصلاحيين إلى التراث والحرص على بعث أمجاد الأمة كانت تهدف إلى بناء الجزائر الحديثة بإخراجها – أي الجزائر – من الوضع الذي كانت فيه وحمايتها من الضياع والذوبان في الآخر. فليس من الحق إذا أن نصف تعلقهم بالماضي الأدبي بالرجعية بمفهومها السلبي. وقد لا نكون مغالين إن قلنا إن إحياء ذلك الماضي والاقتداء به كان في ذلك الوقت تجديدا جريئا، لأنه كان يعد خروجا صارخا عن واقع الحركة الأدبية في الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى خاصة، وهذا الإجراء يمثل في تقديرنا تحولا حاسما في تاريخ

الشعر الجزائري الحديث. نقول هذا على الرغم مما نلحظه في الشعر الإصلاحي من مبالغة في إهمال الموضوعات الذاتية وقصر جل الاهتمام على الموضوعات ذات الطابع الاجتماعي والديني والأخلاقي، لأن ذلك كان أثرا من آثار تسخير الشعراء الإصلاحيين أشعارهم للنهوض بالمجتمع من كبوته بمعالجة أدوائه ومحاربة ماكان يفتك به من آفات وما ران عليه من ضلالات.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن الشعراء منذ العشرينيات كانوا على وعي كبير بوجوب تقديم مصلحة البلاد على المصلحة الفردية الضيقة، وبضرورة توجيه الشعر لإصلاح المجتمع بدلا من الانشغال بالنوازع الذاتية. وقد عبر عن هذه الفكرة أكثر من شاعر، نسمع ذلك من محمد بن الحاج الطرابلسي ومن الطيب العقبي ومن السعيد الزاهري وأبي اليقظان واللقاني بن السايح ومن غيرهم. ويتعذر علينا عرض كلام هؤلاء جميعا في هذا المجال الضيق. لذلك سأجتزئ بكلام شاعرين منهم هما محمد الهادي السنوسي الزاهري ومحمد العيد آل خليفة. فقد قال الأول يتحدث عن الشاعر ورسالته «....إنه ذلك الفذ القادر الذي أوقف نفسه على بني الإنسان جميعا، يجاهد بفكره في سبيلهم، ليهدي الضال ويعلم الجاهل ويضرب لأبناء البشرية المثل العالية في السعادة وكمال الإنسان» [22]. أما محمد العيد فقال في مقابلة أجراها معه الدكتور محمد ناصر:» إن المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة، ولذا جاءت أشعارنا توجيهية تربوية اجتماعية، على أن الواجب يقضي من صاحب الموهبة أن يسخرها لفائدة شعبه لا لفائدته الخاصة، فالغزل لايخلو من روح أنانية» [23].

خلاصة ماتقدم أن دور الحركة الإصلاحية في نهضة الشعر الجزائري الحديث والارتقاء به عما كان قد تردى إليه كان رائدا، وليس من الموضوعية في شيء أن نقيّم جهودها في هذا المضمار بمنأى عن الواقع السياسي

والاجتماعي والثقافي الذي كانت تعيشه الجزائر تحت هيمنة الاستعمار الفرنسي.

**الهوامش:**

1 – الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925 – 1975، د. محمد ناصر، ط الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985 ، ص 21

-2 جريدة الشهاب، ج9،م10 أوت 1934، ص 390

-3 المناظرة بين العلم والجهل، محمد بن عبد الرحمن الديسي، تونس 1903 ، ص 10

4 – الشعر الجزائري الحديث، د.محمد ناصر ، ص36

5 – جريدة وادي ميزاب ،ع33، 15/12/1920، وراجع الشعر الجزائري الحديث، د.محمد ناصر ، ص27

6 – شعراء الجزائر في العصر الحاضر، محمد الهادي السنوسي الزاهري، تونس، 1927 ،ج1، ص69

7 – الشعر الجزائري الحديث ، د.محمد ناصر، ص40

8 – شعراء الجزائر في العصر الحاضر، محمد الهادي السنوسي الزاهري، ج1 ، ص75

9 – الرسالة القاهرية ،ع135، 3/2/1936 ، عن الشعر الجزائري الحديث د.محمد ناصر ، ص28

10 – الشهاب، العدد الخاص بالتفسير، ص167

11 – الشهاب، ج3، م6 مارس 1930 ، ص6

12 – الشعر الجزائري الحديث، د.محمد ناصر، ص21

13 – شعراء الجزائر في العصر الحاضر، محمد الهادي السنوسي الزاهري ، ج1 ، ص128

14 – الشهاب ، ج4 م14، 1938 ص101، وراجع النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1979 ، ص 59-58 .

15 – هنا الجزائر ع5، 27/7/1954 ، ص4، وراجع الشعر الجزائري الحديث، د.محمد ناصر ، ص 52،53

16 – الشهاب، ع11 م8/1932 ، ص605

17 – الشعر الجزائري الحديث، د.محمد ناصر، ص31-30

18 – الشهاب ج1 م5/1930 ، عن الشعر الجزائري الحديث، د.محمد ناصر، ص29

19 – رمضان حمود الشاعر الثائر، د.محمد ناصر، المطبعة العربية، غرداية، 1978 ، ص115

20 –آثار عبد الحميد بن باديس، ج4، ص40

21 – الشهاب ، ج2 م6/1930 ، ص126

22 – شعراء الجزائر في العصر الحاضر، محمد الهادي السنوسي الزاهري، ج2 ، ص10

23 – الشعب الأسبوعي، ع28/10/1976، ص6.